

حزب الله في مواجهة: المباغطة الاستراتيجية

تاريخيًا، تعد المباغطة إحدى الفنون القتالية القديمة الفاعلة في إلحاق الهزائم والخسائر الكبيرة، وأقدمها حرب طروادة في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد، وأحدثها في القرن العشرين، خلال الحرب العالمية الثانية، خلال معركة تارانتو (بريطانيا-إيطاليا)، ومعركة بيرل هاربور (اليابان- القوات الأمريكية)، وكذلك معركة التركيز أو الضربة الجوية في سيناء، ربيع حزيران 1967، التي تمثل واجهة الإرث العسكري الخداعي للكيان المؤقت في المباغطة في القرن العشرين.

يُعرف عن هذا النوع من المفاجآت فعالية تأثيرها لما تقوم عليه من خداع ودهاء و"إبداع". وفي حين يذكر التاريخ مجموعة من الهجمات التي فاجأت الخصم على حين غرة، تكشف هذه الأمثلة الهزائم الساحقة والخسائر الكبيرة التي أصيب بها الطرف المباغت إلى درجة تغيير توازن القوى وثقل الهيمنة والسيطرة على أوراق المفاوضات والحصول على اليد العليا في محادثات المعاهدات، بل والتسبب بالحروب الكبرى، أيضًا.

في سيناء 1967، فاجأت القوات الجوية الإسرائيلية نظيرتها المصرية وشنت سلسلة من الهجمات الجوية المفاجئة. في الموجة الأولى من الضربة الاستباقية، انطلقت ما يقرب من 200 طائرة تابعة للقوات الجوية الإسرائيلية فوق البحر الأبيض المتوسط، وحلقت على ارتفاع منخفض بما يكفي لتجنب كل من الرادار وصواريخ أرض جو، ثم توجهت إلى مصر، وفي غضون ساعات فقط، دمرت طائراتها الحربية؛ بالإضافة إلى ذلك، نشر الإسرائيليون رأسًا حربيًا جديدًا جعل مهابط الطائرات العسكرية للعدو غير صالحة للاستخدام تمامًا. وسرعان ما تلت ذلك موجتان أخريان من القصف، مما أدى إلى تدمير نحو 500 طائرة. وفي الأيام الخمسة التالية، نجح سلاح الجو الإسرائيلي في تدمير طائرات مقاتلة أردنية وسورية، كما تسبب في خسائر فادحة بين القوات البرية. وفي غضون فترة وجيزة، غيرت حرب الأيام الستة بشكل جذري الجغرافيا السياسية في الشرق الأوسط. وفي 17 أيلول 2024، قام العدو الإسرائيلي بسلسلة من الهجمات المباغطة المتتالية، توقع أن تؤدي إلى نتائج مثمرة لصالحه على حساب المقاومة وقاعدتها، والدليل الأقوى على الرهان على فعالية تأثير الهجمات ما شهدته الساحة السياسية اللبنانية مباشرة من مزايدات ومحاولات "الجني" أو "الحصاد" السريع، لكن باءت المساعي بالفشل واصطدمت بواقع مغاير لما كان مرآهنا عليه.

مرّ حزب الله بتحديات عديدة منذ السابع عشر من أيلول 2024 حتى تاريخه، هي الأقوى في تاريخ الحزب القيادي والسياسي والعسكري والتنظيمي والشعبي، بعضها كان مشخصًا ومحددًا وسبق الإلفات إليه، والبعض الآخر وإن سبق التداول باحتماله إلا أنه حاز على ترجيحات ضئيلة لأنه كان يمثل خطوطًا حمراء، لعل الأغلب من المحللين السياسيين والعسكريين كان يستبعدوها، على الأقل زمنيًا، وفق الظروف التي كانت تحيط بميار الحرب على غزة. سمحت طبيعة الحزب وهيكلية وميزاته المؤسسية ومجموعة مزاياه ومبادئه واستراتيجيته في تجاوز بعض التحديات الجوهرية التي كان المطلوب أن تتحوّل إلى تهديدات بنوية تمسّ بـ "وجود" الحزب وما يمثله من مقاومة متكاملة الأبعاد: عسكريًا وسياسيًا وشعبيًا، وذلك بالاستفادة من المباغطة التي قام بها العدو الصهيوني. العامل الثاني الذي ساهم في هذا الاتجاه هو موقف القاعدة الشعبية للمقاومة التي عملت على المساعدة في امتصاص الصدمات عبر قبول التحدي بالصبر والاحتساب والإيمان بقوة الخط. سرعة التعافي لدى حزب الله فاجأت الكثيرين وعطّلت مفاعيل مخططات أكثر "عدوانية وإنهزامية" كانت قيد التحضير وموضع "جسّ نبض"، حتى فصل الميدان الخطاب وأجهضت الإنجازات العسكرية للمقاومة المشاريع المعادية

الخارجية والداخلية، وعاد التوازن تدريجيًا في مسار الحرب لكن بشكل تصاعدي أعاد ثقل كلمة المقاومة في ميزان المفاوضات والأوراق السياسية.

تتناول الورقة مجموعة من أبرز التحديات التي تجاوزها حزب الله منذ 17 ايلول حتى تاريخه مرورًا بالمحطات المفصلية في تاريخ الحرب على لبنان، خلال الفترة المحددة.

تحديات المواجهة

هناك مجموعة من التحديات التي أثبت حزب الله جدارته في تجاوزها باعتراف العدو والخصم قبل الصديق والحليف. ويبرز نوعان من التحديات: داخلية وخارجية؛ ويمكن تفصيلها على الشكل التالي:

التحديات الخارجية وآليات تجاوزها

1. صورة المقاومة: شكّلت سلسلة الاغتيالات والتفجيرات واستهداف الرعيل الأول والكوادر والقادة تحديًا قويًا لصورة المقاومة في الشارع المحلي والعربي والإقليمي لجهة التشكيك بفعالية المقاومة واستمراريتها ونجاحاتها.

2. مشروع المقاومة مقابل مشروع التطبيع: بالنظر الاستراتيجية البعيدة المدى، تعرّضت المقاومة كمشروع مناهض للتطبيع والهيمنة للاستهداف، فنجاح الاستهداف في إضعاف و/أو القضاء على المقاومة العسكرية والسياسية يُؤلّد دفعًا وانبعًا في اتفاقيات التطبيع التي جمّدها طوفان الأقصى.

3. الفتنة عبر تحميل إيران مسؤولية ما جرى في لبنان: بادرت سرديّة إعلامية معادية تكاد تكون جاهزة، على وسائل التواصل الاجتماعي خاصة، إلى إلقاء التهم على إيران والتصويب عليها بذريعة "عدم مساعدة حزب الله"، و "عدم اهتمامها إلا بمصلحتها" على حساب لبنان وغزة.

آليات التجاوز

مواجهة التحديات الداخلية، وفي مقدمتها القيادية والعسكرية، أعادت التوازن لصورة المقاومة وإحياء المشروع المقاوم وكشف زيف الأكاذيب وتدليس الحقائق. فقد بادر مجلس شورى حزب الله إلى انتخاب أمين عام، كما قامت غرفة القيادة العسكرية بملء مناصب التعيينات الشاغرة، ولم تسمح للفراغ أن يسري في أركان الحزب. فأثبتت من جديد أن المقاومة مشروع حي وناض، ولا يتأثر باغتيال القادة، بل قابل للتولّد من جديد.

التحديات الداخلية وآليات تجاوزها

أولاً: التحدي القيادي

1. الفراغ القيادي: وذلك عبر اغتيال الأمين العام السيد حسن نصر الله ثم رئيس المجلس التنفيذي السيد هاشم صفي الدين؛ اغتيالات الرعيل الأول من مؤسسي حزب الله والمقاومة ومنهم قادة الصف الأول والصف الثاني من كوادر الأجهزة العسكرية والاستخباراتية والميدانية.

2. الحفاظ على وحدة الصف ووحدة القرار والاتجاه: ارتفع مستوى التحدي على القيادة الخلف باتجاه استعادة توازن القوى الداخلية لهيكلية حزب الله.

3. الحفاظ على إرادة القتال والاستمرارية البطولية: أمام ما مرّ به الحزب كتنظيم عسكري وما عايشته بيئة المقاومة من فقد أمينها العام السيد حسن نصر الله بعد أحداث أليمة وصادمة أصيب بها أبنائها، كان لا بد من الحفاظ على إرادة القتال والاستمرارية البطولية

4. إعادة بناء غرفة إدارة العمليات: بعد الخسائر التي أصيب بها حزب الله، لعب الوقت دوراً مهماً في ضرورة إعادة بناء غرفة إدارة العمليات من تعيينات ووضع استراتيجية وتحديد أهداف وإدارة الحرب.

5. بناء آليات جديدة للتواصل: مع عمليات التصفية لكامل القيادة وتدمير خطوط الاتصال الميدانية، واختراق آليات التواصل المعتمدة من قبل المقاومة كان لزاماً تنسيق آليات جديدة لإدارة المعركة وعودة التواصل بين مختلف البنى العسكرية والميدانية.

آليات التجاوز

بادر أعضاء قيادة حزب الله إلى ملء الفراغ القيادي باختيار أمين عام، وسارعت إلى ملء الشواغر من مختلف المناصب العسكرية والميدانية وإعادة ترتيب الهيكلية والتعيينات. ساهمت طبيعة الحزب بتماسك القيادة والالتفاف والوحدة ومنع حصول ثغرات قيادية، وتدرجياً استعاد العمل القيادي زخمه في إدارة الحرب.

ثانياً: التحديات السياسية

1. محاولات العزل السياسي والإقصاء اعتقاداً بأنها نتيجة حتمية مرتبطة بالفراغ السياسي القيادي: قدّمت بعض الأطراف المعادية للمقاومة أوراق اعتمادها لدى الأميركي والإسرائيلي، وتبنّت المشروع الآخر في مواجهة المقاومة من الداخل، وذلك ليس إلا أنهم اعتقدوا بما روج له الإسرائيلي من أن "حزب الله ضعيف" وأنها "لحظة تاريخية" لا بد من الاستفادة منها للقضاء على المقاومة كلياً.

2. محاولة سلب المشروع عن المقاومة مع ذريعة عدم القدرة على تأمين الحماية للقادة والبيئة: هدف المشروع الأميركي الإسرائيلي إلى استكمال مخطط ضرب حزب الله والمقاومة عسكرياً عبر الداخل عن طريق تفكيك البيئة الحاضنة للمقاومة، فكانت بروباغندا "عدم قدرة الحزب والمقاومة على حماية نفسها فضلاً عن شعبها"، بما يخلق نوعاً من الإحباط التدريجي واليأس لدى القاعدة والانفكاك من حول المقاومة.

3. تقديم خطاب سياسي يعمل على امتصاص صدمات ما بعد 16 أيلول: تطلب الوضع الميداني والمعنوي بعد الأحداث الأليمة من المقاومة وقيادتها أن تقدم خطاباً واقعياً قادراً على إعادة التوازن إلى صفوف المقاومة العسكرية وقاعدتها الشعبية.

4. مقبولية المشروع السياسي الأميركي الإسرائيلي، لإحياء للفتنة الداخلية والدعوات لنزع السلاح والتطبيع مع الكيان، لدى بعض الأطراف في الداخل: تبنّت بعض الأطراف السياسية مشروع زرع الفتنة في الشارع اللبناني. التهمج على حزب الله والمقاومة في الداخل اللبناني كان أشد وطأة من التهديد الإسرائيلي وخطره. علت الأصوات المنددة بسياسات المقاومة وتحميل سياسة "إسناد غزة" ما آلت إليه أوضاع البلاد من تدمير وخسائر بشرية ومادية. بعض الأفرقاء في الداخل تحدثوا نيابة عن الإسرائيلي والأميركي وهؤلاء منهم الطامحين للسلطة، وجماعة الالتزام بالشرعية الدولية وقرارات المجتمع الدولي، ومنهم أصحاب دعوات إحياء اتفاق 1559 لنزع سلاح المقاومة كاملاً، وإقفال ملف الصراع مع الكيان المؤقت، حتى حملت بعض التسريبات الاستعداد لمحاولة إحداث "انقلاب عسكري"، كما تسرب من رسالة رئيس القوات اللبنانية، سمير جعجع، إلى قائد الجيش.

آليات التجاوز

أثبتت لحمة الصف الشيعي السياسي جدارتها في مواجهة مخطط عزل المقاومة وتمثيلها السياسي عبر حزب الله. استطاع الثنائي الشيعي إحكام عملية التنسيق في الأدوار، خاصة في ملف التفويض في

المفاوضات، منذ الأيام الأولى لها. ساهم النجاح في مواجهة التحدي القيادي في تقويض التحدي السياسي، خاصة مع وجود أفرقاء سياسيين ثابتين على خط دعم المقاومة بعد اغتيال أمينها العام. وأهم عامل مؤثر في تجاوز التحديات السياسية هي الإنجازات الميدانية التي رفدت المجتمع السياسي بأوراق ثقل في الداخل والخارج.

ثالثاً: التحديات العسكرية

1. الانتظام والقيادة: اعتبر العدو أن سلسلة الاغتيالات التي قام بها كفيلة بأن تحدث اهتزازاً بنيوياً قوياً لدى المقاومة، يعرقل المهام والإدارة. إذ عمل على تحييد كبار القادة وعدد كبير من المسؤولين المؤسسين للمقاومة ومسؤولي الملفات الحساسة والكوادر والعناصر المتوزعة المهام - قتل 2500 إلى 4000 - في عملية تفجير "البيجر" وأجهزة الاتصالات.

2. الاتصالات: قضى العدو على شبكة اتصالات حزب الله الرئيسة عبر الاختراق التكنولوجي. وتالياً، اعتبر أنه أوجد ثغرة أساسية في الميدان العسكري ووصول الأوامر وإدارة المعركة.

3. العمليات الصاروخية (السلاح النوعي والكمّي): قام العدو بغارات على مخازن الصواريخ والأسلحة من الجنوب إلى بعلبك والبقاع وذلك خلال الأيام الأولى للحرب، وصرّح بأنه قضى على 60% - 80% من قوة حزب الله الصاروخية.

4. الدفاع الجوي: يملك الكيان التفوق في السلاح الجوي بما يملك من طائرات حربية وطائرات مسيرة استطلاعية وهجومية متقدمة وصواريخ وقنابل أميركية يصل زنة بعضها إلى 2000 كلغ.

5. التصدي للهجوم البري: اعتبر العدو أن قطع سلسلة القيادة والاتصالات وضرب المعنويات لدى المقاومين والشعب إضافة إلى سياسة الأرض المحروقة قبل الهجوم البري وتفجير القرى الأمامية؛ اعتبرها كلها عوامل تساعد في تخفيف كلفة المواجهة البرية.

آليات التجاوز

مع استعادة حزب الله عافيته القيادية وهيكلته التنظيمية والقدرة على التواصل بالطرق غير المعهودة سابقاً بعد كشف الخلل الحاصل، انعكست الإيجابية في الميدان على مستويات الدفاع الجوي والصاروخي والبري. سجلت العمليات الصاروخية حكمة قيادية في اختيار الأهداف والكمّ والنوع، وعدم حرق الأهداف بل التدرج في عملية تكيف مع نتائج الحرب الإسرائيلية المباشرة. المفارقة، أن العمليات الصاروخية بقيت تنطلق من قرى حدودية ومن قرى كان العدو قد أغار عليها سابقاً. أما اللافت فكانت إنجازات الدفاع الجوي في إسقاط طائرات هزم الإسرائيليين بنوعها: 450 و 900. وتؤمن قوة العقيدة لدى الجماعة العسكرية أرقى تجليات الجهاد والانتصار، فقد استعاد المقاومون بالقوة الإيمانية والروح المعنوية زخم العمل العسكري، الصاروخي والميداني في مواجهة الاحتلال والغزو البري، على الرغم من شدة الهجمات الجوية وعنف القصف وتفجير القرى.

رابعاً: التحديات التنظيمية

1. المحافظة على سريان الإجراءات والتواصل مع الأطراف خارج التنظيم مع الملاحقة والاستهداف المستمر للكوادر والقادة: راهن العدو على التفكير التنظيمي للمقاومة مع فقدان القيادات والقدرة على التواصل. فكل قائد ومسؤول بأي درجة وبأي ميدان كان أصبح هدفاً بحد ذاته، سيما مع فقدان آليات التواصل الآمنة (الهاتف الداخلي والأجهزة).

2. استجابة الجمهور وتأثيره: تعدّ ردة فعل جمهور المقاومة على عمليات الاغتيال وفقدان الأمين العام السيد نصر الله على وجه الخصوص، حجر الزاوية في الحفاظ على زخم المقاومة والصمود أمام الهجمة الإسرائيلية الشرسة.

4. استعادة قنوات التواصل: الاتصال عملية أساسية في استعادة الحزب دوره العملياتي الميداني بعدما أصيب بالضربات المتتالية بعد حادثة تفجير "البيجر".

5. حماية توزيع الموارد: في سياق تحقيق أهداف "القضاء على المقاومة"، اتضحت نوايا العدو في مخطط القضاء على مقومات المقاومة المادية والاقتصادية من مؤسسات القرض الحسن المالية والمؤسسات الفرق الطبية والإسعافية والمراكز والمؤسسات الاستشفائية.

آليات التجاوز

ساهم التنظيم المؤسسي في حزب الله في استعادة القدرة على تنظيم الأوراق مجدداً والتحكّم بمسار الإجراءات، ما أعاد لبيئة المقاومة الإحساس بـ"عافية" المقاومة"، ووضع الأولى أمام دور خاص بها في الصمود والتحمل والصبر. وأوجدت عملية الحفاظ على توزيع الموارد المالية وتأمين الطواقم الطبية تأثيراً إيجابياً ودافعاً نحو المزيد من المواجهة والتحمل فيها.

خامساً: التحديات الاجتماعية الشعبية

1. تعزيز قدرة الصمود والمشاركة بالجهد غير المباشر مع شدة الحرب ووطأتها: الهجمات العدوانية الإسرائيلية والمجازر التي نتجت بها وحجم التدمير والنزوح القهري وتكرار النزوح أكثر من مرة، وغيرها من الأعباء تتطلب كلها قدرًا من القوة والعزيمة والثبات للحفاظ على روح الصمود ومشاركة المقاومين في الجبهات الأمامية في واقع المعاناة والصبر عليها.

2. استمرار الإيمان بمشروع المقاومة: ويرتبط هذا التحدي بعوامل الإحباط والشك واليأس من القدرة على الحماية ونيل التوفيق في المواجهة بعد حجم التدمير والنجاح في الاغتيالات الأمنية.

3. تلبية احتياجات بيئة المقاومة: تحيط بأهل المقاومة وقاعدتها وبيئتها مجموعة كبيرة من الصعوبات والتحديات المعنوية والمادية في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة، وضعف دور الدولة، والفساد في توزيع المساعدات، وسوء المناخ خاصة مع الانتشار في المناطق الجبلية، وأسوأها في مناطق الأطراف حيث يصعب التواصل وتقل المساعدات.

4. تقديم خطاب سياسي إعلامي يواكب تحديات المرحلة: نشطت برامج الإعلام التضليلي وتلفيق الأكاذيب وبرزت إلى السطح شخصيات شيعية تابعة للسفارات الأجنبية والإسرائيلية، عملت محطات الإعلام المشبوه إلى استضافتها وإظهارها بهدف التأثير في بعض الشرائح والفئات.

5. حيالة صورة القوة المادية والمعنوية: حاجة قاعدة المقاومة وبيئتها إلى استعادة المقاومة الكلمة في الميدان والشعور السابق بالقوة رغم كل الخسائر والأضرار.

6. تماهي بيئة المقاومة في مناطق النزوح خارج إطارها الجغرافي والهوياتي: خرجت بيئة المقاومة إلى مناطق أخرى غير متماثلة في الدين والمذهب وحتى الانتماء السياسي. وكان لزاماً على قاعدة المقاومة عدم السماح لمحرصي الفتن بالنجاح بمشروعهم، من خلال امتصاص أي مشكلة وتجنب أي حساسية ومنع إثارة أي تحفظ في البيئات الأخرى، إضافة إلى تعاون المواطنين في شياخ جو من الإلفة وقبول الآخر، خاصة وأن النازحين مسالمون ويحاولون الاندماج دون أي مشكلات. كما ساهم مجهود القيادة

السياسية لحزب الله بالحفاظ قدر الإمكان على التنسيق مع الأطراف الأخرى للحفاظ على حبل الوحدة الوطنية، ولو عبر الاستعانة بالحلفاء، كما في الجبل أو الشمال.

7. شرح الشارع اللبناني، عمومًا، ومجتمع المقاومة خصوصًا مع تبادل الاتهام بالمسؤولية: كان لا بد من امتصاص أي بوادر للفتن والنعرات الطائفية والحزبية منعًا من تحقيق أهداف المشروع الأميركي الإسرائيلي.

آليات التجاوز

المقاومة لدى حزب الله حركة عقائدية إيمانية شعبية، كما هي لدى حركة أمل، وكل عائلة نازحة لديها من الأبناء والإخوة والأقارب والجيران من هم في خطوط المواجهة العسكرية، الأمر الذي خلق حالة من المشاركة التفاعلية مع المقاومين على الجبهات، كل عائلة من موقعها. وتسلّحت البيئة بمخزونها الثقافي الديني من الصبر والثواب والتأسي بكر بلّاء في سياق تخفيف ضغط المعاناة، فضلًا عن إظهار الحكمة وعدم الاصطدام بأي مشروع "فتنوي"، كما لعب الإعلام المقاوم دوره في نقل الوقائع أمام الكم الكبير من تضارب المعلومات وتزييفها، وساهمت مختلف وسائل الإعلام المقاوم، المرئي والمسموع وعلى وسائل التواصل، في مواكبة البيئة ورفدها بالمعنويات، خاصة الناجمة عن إنجازات الميدان.

تعرّض حزب الله في أيلول 2024 لعملية "مباغثة استراتيجية" هدفت إلى "القضاء" على المقاومة في لبنان؛ المقاومة بكل أنواعها: العسكرية والسياسية والشعبية. الهدف الاستراتيجي هو ما أعلنه وزير الحكومة الإسرائيلي، نتنياهو، أي "تغيير خريطة الشرق الأوسط". العملية المحكمة تكنولوجيًا وعملياتيًا، والتاريخية الجذور والقوية المفاعيل والخطيرة التداعيات، باءت بالفشل، ولو نسبيًا وبن نتائج صعبة. استطاعت المقاومة أن تمتص الصدمات في الأيام الأولى، وتعاود الترميم بسرعة، وتستفيد من خبرتها المؤسساتية الطويلة، وبالاعتماد أولًا وأخيرًا على الله، وعلى رجال الميدان، ان تتجاوز أصعب المراحل، وتستلم مجددًا زمام المبادرة قياديًا وميدانيًا بما يعطّل الأجنداث المرسومة، المعلنه والمخفية. الحرب تستمر حاليًا، والتحديات في تزايد، والاستجابات ليفترض ان تتكيف مع خصوصيات كل مرحلة، لكن يمكن القول إن الجولة الأصعب التي مرت بها المقاومة وقاعدتها تكاد تكون فاتحة النصر الكبير بالصبر والتوكل على الله، والإيمان بقوة رجال معركة "أولي البأس".